منّاع القطّان

ضرورة الدّعوة إلى الله وآثارها

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

ضرورة الدعوة إلى الله وآثارها

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

● **الدعوة لغةً واصطلاحاً** :

تدل مادة هذه الكلمة فى استعمالاتها المتعددة على ما تستميله إليك عن طريق النطق ، إذ يقول ابن فارس فى مادة (دعو) : « الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد وهو أن تميل الشىء إليك بصوت وكلام يكون منك . تقول : دعوت أدعو دعاءً ، والدَّعوة إلى الطعام بالفتح ، والدِّعوة فى النسب بالكسر ، قال أبو عبيدة : يقال فى النسب : دِعوة ، وفى الطعام دَعوة ، هذا أكثر كلام العرب ، إلا عَدِى الرِّباب ، فإنهم ينصبون الدال فى النسب ويكسرونها فى الطعام ، قال الخليل : الادِّعاء : أن تدعى حقاً لك أو لغيرك ، تقول : ادّعى حقاً أو باطلاً ، قال امرؤ القيس :

لا وأبيك ابنة العامرِيِّ لا يدعى القوم أنى أفر

وداعية اللَّبن : ما يترك فى الضَّرع ليدعو ما بعده ، وهذا تمثيل وتشبيه . . . . وتداعت الحيطان : وذلك إذا سقط واحد وآخر بعده ، فكأن الأول دعا الثانى ، ودعوت الله أدعوه دعاءً : ابتهلت إليه بالسؤال ، ورغبت فيما عنده من الخير ، ودعا المؤذن الناس إلى الصلاة ، فهو داعى الله ، والجمع : دعاة وداعون ، مثل : قاض وقضاة وقاضون ، والنبى داعى الخلق إلى التوحيد ، ودعاه إلى الدين : حثه على اعتقاده . والدعوة : اسم ، من دعوت الناس إلى الشىء ، والداعية : الذى يدعو إلى دين أو فكرة ، والهاء للمبالغة ، ويقال : دعاه بداعية الإسلام : أى بدعوة الإسلام ، وهى كلمة التوحيد ، والمعنى بالكلمة الداعية إلى الإسلام ، فهى صفة لموصوف ، ويجوز أن تكون داعية هنا مصدراً بمعنى الدعوة كالعافية . تقول : عافانى الله معافاةً وعافيةً ، وقوله تعالى : ﴿ وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾ (١)

---

(١) الأحزاب : ٤٦

معناه داعياً إلى توحيد الله ، وفى كتابه ﷺ إلى هرقل : « أدعوك بدعاية الإسلام » أى بدعوته ، وهى كلمة الشهادة التى يُدعَى إليها أهل الملل الكافرة (١) .

● وقد جاءت مادة هذه الكلمة فى القرآن بأكثر من موضع :

(أ) جاءت بمعنى الابتهال إلى الله بالسؤال فى آيات :

كقوله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ دَعَوا اللهَ مُخْلصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ وإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَواْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ (٤) .

(ب) وجاءت بمعنى الحث على التوحيد ، وهداية الله وما فيها من خير :

---

(١) معجم مقاييس اللغة ، ومفردات الراغب ، والمعاجم اللغوية .

(٢) النمل : ٦٢ (٣) يونس : ٢٢ (٤) الروم : ٣٣

كقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ [1] .

وقوله : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى ﴾ [2] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [3] .

وقوله : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [4] .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾ [5] .

وقوله : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [6] .

وقوله : ﴿ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [7] .

---

(1) نوح : ٥ .
(2) يوسف : ١٠٨
(3) المؤمنون : ٧٣
(4) آل عمران : ١٠٤
(5) الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦
(6) النحل : ١٢٥
(7) الحج : ٦٧

وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ [1] .

● وإذا نظرنا إلى دعوة الرسل بعامة ، ودعوة رسولنا محمد ﷺ بخاصة ، وجدنا هذه الدعوة قد تضمنت كثيراً من الأمور :

١ - تضمنت الدعوة إلى توحيد **الله** فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، والبراءة من الأنداد والشركاء .

٢ - وتضمنت الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

٣ - وتضمنت تفنيد شبهات المبطلين .

٤ - وتضمنت شرائع الإسلام فى علاقة العبد بربه وعلاقته بالناس .

٥ - وتضمنت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل **الله** .

---

(١) الرعد : ٣٦

٦ - وتضمنت الحث على الخير ، والتحلى بمحامد الأخلاق .

● وفى ضوء ما سبق فإن الدعوة إلى الله فى الاصطلاح :

هى توجيه الخطاب إلى من يتأتى خطابه بأساليب البيان المفهومة لديه ، للإيمان بالعقيدة الإسلامية ، والانقياد لشرائع الإسلام ، والذب عن حياض الدين .

● ضرورة الدعوة إلى الله :

والدعوة إلى الله ضرورة باعتبارات متعددة :

أولاً : هى ضرورة بالمفهوم الاصطلاحى لمقاصد الشريعة ، فإن المقصد العام من تشريع الأحكام هو تحقيق مصالح العباد فى العاجل والآجل ، بجلب المنفعة ودفع المضرة ، ومن خالف فى هذا من الأصوليين محتجاً بأن أحكام الله ليست معللة ، كالرازى ، تجنب لفظ العلة وسماها علامة الحكم ، فيصير الخلاف لفظياً ، لأنه يثبت أن العلل بمعنى العلامات المعرِّفة للأحكام الخاصة ، إذ ردَّ الرازى على المعتزلة تفسيرهم للعلة الشرعية تارة بالموجب ، وتارة

بالداعى ، ثم قال : « أما أصحابنا فإنهم يفسرونه بالمُعَرِّف » [1] .

يقول الشاطبى : « والمعتمد إنما هو أنّا استقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد استقراءً لا ينازع فيه الرازى ولا غيره ، فإن الله تعالى يقول فى بعثة الرسل وهو الأصل : ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [2] ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ ﴾ [3] .

وقال فى أصل الخلقة : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [4] .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [5] .

---

(١) المحصول للرازى ، تحقيق طه جابر العلوانى : ج٢ ق٢ ص١٩٠ ، مطبوعات جامعة الإمام .

(٢) النساء : ١٦٥ — (٣) الأنبياء : ١٠٧

(٤) هود : ٧ — (٥) الذاريات : ٥٦

﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (١) .

وأما التعاليل لتفاصيل الأحكام فى الكتاب والسُّنَّة فأكثر من أن تحصى .

كقوله بعد آية الوضوء : ﴿ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِن حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ (٢) .

وقال فى الصيام : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٣) .

وفى الصلاة : ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ ﴾ (٤) .

وقال فى القِبْلة : ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُم حُجَّةٌ ﴾ (٥) .

وفى الجهاد ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ﴾ (٦) .

---

(١) الملك : ٢
(٢) المائدة : ٦
(٣) البقرة : ١٨٣
(٤) العنكبوت : ٤٥
(٥) البقرة : ١٥٠
(٦) الحج : ٣٩

وفى القصاص : ﴿ وَلَكُمْ فِى القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

وفى التقرير على التوحيد : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (٢) .

فدل استقراء الأحكام الشرعية ، واستقراء العلل والحِكَم التى قرنها الشارع بكثير من الأحكام على أن المقصد العام من التشريع تحقيق مصالح الناس بجلب النفع لهم ، ودفع الضرر عنهم ، وهذه المصالح إما أن تكون ضرورية ، وإما أن تكون حاجية ، وإما أن تكون تحسينية .

والضرورية : هى التى تقوم عليها حياة الناس ، ولا بد منها لاستقامة أمورهم دنيا وأخرى ، وهى ترجع إلى حفظ خمسة أشياء (الدين والنفس والعرض والمال والعقل) فحفظ كل واحد منها ضرورى للناس .

---

(١) البقرة : ١٧٩ (٢) الأعراف : ١٧٢

الموافقات فى أصول الشريعة للشاطبى : ٦/٢ ، ٧ ، مطبعة الشرق الأدنى .

أما الحاجية : فهى ما يحتاج إليه الناس لليسر والسعة ورفع الحرج .

وأما التحسينية : فهى ما تقتضيه المروءة والآداب مما يرجع إلى مكارم الأخلاق ومحاسن العادات ، وتحسن به الحياة .

وقد بين الشاطبى هذا بياناً شافياً ، وذكر أن الضروريات الخمسة جاءت فى كل مِلَّة ، ومما قاله فى ذلك :

« تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها فى الخلق » وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام : أحدها أن تكون ضرورية ، والثانى أن تكون حاجية ، والثالث أن تكون تحسينية .

فأما الضرورية : فمعناها أنها لا بد منها فى قيام مصالح الدين والدنيا ، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة ، بل على فساد وتهارج وفوت حياة ، وفى الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين ... » ثم قال : « ومجموع الضروريات خمسة : وهى حفظ

الدين ، والنفس ، والنسل ، والمال ، والعقل » ، وقد قالوا : « إنها مراعاة فى كل مِلَّة » [1] .

والذى يعنينا من الضروريات هنا حفظ الدين . والدين : شرع إلهى يدعو أصحاب العقول إلى قبوله والعمل به [2] وذلك فى الاعتقاد بالجنان ، والإقرار باللسان ، وعمل الجوارح بالأركان ، وحول هذا المعنى جاء تعريف الدين اصطلاحاً عند عدد من العلماء .

والمعاجم اللغوية لا تعطى معنى لغوياً واحداً لكلمة « الدين » فإنها تأتى بمعنى الجزاء ، والإسلام ، والعبادة ، والطاعة ، والذل ، والخضوع ، والقهر ، والغلبة ، والاستعلاء ، والسلطان ، والملك ، والحكم ، والسيرة ، والتوحيد ، واسم لجميع ما يتعبد الله عَزَّ وجَلَّ به ، وكل معنى من هذه المعانى له دلالته فى المعنى الاصطلاحى وما يقتضيه من لزوم الانقياد .

---

(١) الموافقات : ٢/٨ ، ١٠

(٢) كتاب التعريفات للشريف الجرجانى ص ١١١ ، طبع مكتبة لبنان .

وعرف الدين اصطلاحاً صاحب تفسير المنار بقوله : الدين وضع إلهى يحسن الله تعالى به إلى البَشر على لسان واحد منهم لا كسب له فيه ولا صنع ، ولا يصل إليه بتلق ولا تعلم ﴿ إنْ هُوَ إلاَّ وَحْىٌ يُوحَى ﴾ (١) .

وقال آخرون : الدين وضع إلَهى يرشد إلى الحق فى الاعتقاد وإلى الخير فى السلوك .

وعرفه بعضهم بخصيصة الوحى فقال : الدين لا يكون إلا وحياً من الله لأنبيائه الذين يختارهم من عباده ويرسلهم أئمة يهدون بأمر الله (٢) .

وأياً كان التعريف الاصطلاحى ، فإن الدين هو مجموعة العقائد والعبادات والأحكام التى شرعها الله تعالى لتنظيم علاقة الناس بربهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض .

والحفظ للضروريات يكون بأمرين :

---

(١) تفسير المنار : ٢/٦٩ ، النجم : ٤

(٢) انظر الأديان فى القرآن الكريم للدكتور محمود بن الشريف ص ٢٠ ، ٢١ ، طبع دار عكاظ - جدة .

أحدهما : ما يقيم أركانها بمراعاتها من جانب الوجود .

والثانى : ما يدرأ عنها الاختلال حماية لها .

وقد شرع الإسلام لإيجاد الدين وإقامته ، إيجاب الإيمان والأركان الخمسة التى بنى عليها الإسلام فى حديث ابن عمر المتفق عليه ، وهى شهادة أنْ لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً . وسائر العقائد الإيمانية وأصول العبادات والمعاملات التى لا يقوم الإسلام إلا بها وأوجب الدعوة إلى الدين وتأمين الدعوة إليه من الاعتداء عليها وعلى القائمين بها ، ومن وضع عقبات فى سبيلها .

وشرع الإسلام لكفالة بقاء الدين وحفظه وحمايته من العدوان عليه أحكام الجهاد ، لمحاربة من يقف عقبةً فى سبيل الدعوة إليه ومن يفتن متديناً ليرجعه عن دينه ، وعقوبة من يرتد عن دينه ، وعقوبة من يبتدع ويحدث فى الدين ما ليس منه ، أو يحرِّف أحكامه عن مواضعها (١) .

---

(١) انظر علم أصول الفقه - عبد الوهاب خلاف ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ، طبع دار القلم .

وبهذا تكون الدعوة إلى الله ضرورة لحفظ الدين الذى هو من الضروريات الخمسة .

ثانياً : والدعوة إلى الله ضرورة بمقتضى أساليب طلب الفعل الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فمن صيغ طلب الفعل المضارع المقرون بلام الأمر ، والأصل فى هذا الوجوب ما لم تكن هناك قرينة صارفة له إلى غيره لقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢) .

ووجه الاستدلال فى الآيتين أن التهديد على المخالفة دليل الوجوب . وقوله عليه الصلاة والسلام : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » (٣) ، فهذا يدل على الوجوب ، وإلا فلو كان الأمر للندب فالسواك مندوب (٤) .

---

(١) النور : ٥٤ (٢) النور : ٦٣ (٣) متفق عليه .

(٤) راجع الإحكام فى أصول الأحكام للآمدى : ٢/ ١٤١ وما بعد بتعليق الشيخ عبد الرزاق عفيفى .

وقد قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن منكُم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ (١) فدلت هذه الآية على أن الدعوة إلى الله واجبة على كل مسلم ومسلمة ، على الفرد والجماعة ، كل قدر استطاعته .

ولا يقال : إن هذا واجب كفائى يقوم به العلماء فقط لأن الآية كما تفيد وجوب قيام جماعة بالدعوة إلى الله ، تفيد كذلك أن كل فرد من أفراد الأمة يجب عليه كذلك قدر علمه واستطاعته .

قال الإمام ابن كثير فى تفسير الآية : « والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه ، كما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

---

(١) آل عمران : ١٠٤

و(من) فى قوله : (منكم) قيل : إنها للتبعيض لأن فى الأمة من لا يقدر على الدعوة ولا على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وقيل : إنها لبيان الجنس وليست للتبعيض كقوله تعالى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ (١) لأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على كل الأمة فى قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (٢) فالمعنى كونوا أمةً دعاةً إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر أى لتكونوا كلكم كذلك .

وإذا كان العلم بصحة ما يدعو إليه الداعى شرطاً لصحة الدعوة ، فهذا لا يعنى أن الدعوة إلى الله خاصة بالعلماء ، وغاية ما فيه أن كل مسلم يدعو إلى الله بالقدر الذى يعلمه سواء كان من عامة المسلمين أو ممن نال حظا كبيراً من العلم .

قال صاحب المنار : وقد اختلف المفسرون فى قوله

---

(١) الحج : ٣٠ (٢) آل عمران : ١١٠

تعالى : ﴿ مِنكُمْ ﴾ هل معناه بعضكم ، أو « من » بيانية ؟ ذهب مفسرنا الجلال إلى الأول ، لأن ذلك فرض كفاية ، وسبقه إليه الكشاف وغيره ، وقال بعضهم بالثانى ، قالوا : والمعنى : ولتكونوا أمة تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر قال الأستاذ الإمام : والظاهر أن الكلام على حد « ليكن لى منكم صديق » فالأمر عام ويدل على العموم قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ فإن التواصى هو الأمر والنهى ، وقوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١) ، وما قص الله علينا شيئاً من أخبار الأمم السابقة إلا لنعتبر بها (٢) .

وذكر ابن عطية الوجهين ثم قال : « والناس فى تغيير المنكر والأمر بالمعروف على مراتب ، ففرض العلماء فيه

---

(١) المائدة : ٧٨ ، ٧٩

(٢) تفسير المنار : ٤/٢٦ ، ٢٧ ، طبع دار المعرفة .

تنبيه الحكام والولاة وحملهم على جادة العلة ، وفرض الولاة تغييره بقوتهم وسلطانهم ، ولهم سلطة اليد ، وفرض سائر الناس رفعه إلى الحكام الولاة بعد النهى عنه قولاً ، وهذا في المنكر الذى له دوام ، وأما إن رأى نازلةً بديهةً من المنكر كالسلب والزنى ونحوه ، فيغيرها بنفسه بحسب الحال والقدرة ، ويحسن لكل مؤمن أن يحتمل فى تغيير المنكر وإن ناله بعض الأذى ، ويؤيد هذا المنزع أن فى قراءة عثمان بن عفان وابن مسعود وابن الزبير (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم) فهذا وإن كان لم يثبت فى المصحف ، ففيه إشارة إلى التعرض لما يصيب عقب الأمر والنهى ، كما هى فى قوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ (١) ، فكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفاية لا يعنى سقوطه عن كل فرد فى كل حال ، وإنما يعنى سقوطه إذا قام به غيره ، بخلاف الفرض العينى الذى لا يسقط إلا بالقيام به من كل فرد .

---

(١) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز : ٣٥٦/٣ ، طبع قطر ، سورة لقمان : ١٧

ويتضح من هذا أن الدعوة إلى الله واجبة على كل مسلم حسب استطاعته كما بيّن الحديث الآنف الذكر (من رأى منكم منكراً فليغيره . . .) ، وقد يبرر بعضهم تقاعسه عن واجب الدعوة إلى الله بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [1] ، فإن الآية لا تعفى الإنسان من مسؤولية الدعوة إلى الله ما دام صالحاً فى نفسه مطلقاً ، كما يتوهم ، لأنها محمولة على أنه إذا أدى واجب الدعوة ولم يستجب له المدعو فإن هذا لا يضره وقد سقط عنه واجب الدعوة إلى الله بآدائه ، أما الاستجابة فليست إليه ، فالمعنى : إذا لم يقبل منكم ولم تقدروا على تغيير المنكر ، فإنه لا يضركم شىء ، وهذا هو ما فسر به أبو بكر الصِّدِّيق - رضى الله عنه - الآية حين خطب الناس فقال : (أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها فى غير موضعها ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يُضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه

(١) المائدة : ١٠٥

أوشك أن يعمهم الله بعقابه »)[1] ، وأضاف شيخ الإسلام ابن تيمية إلى هذا استنباطاً آخر فى كتاب الحسبة ، وهو أن الله تعالى قال فى الآية ﴿ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب ، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما قام بغيره من الواجبات لم يضره ضلال الضُّلال .

وتخطر شبهة أخرى إزاء انتشار الفساد وسطوة الباطل لدى من يزعم أن هذا يجعل الدعوة إلى الله عديمة الجدوى ، فليس على المسلم سوى إصلاح نفسه ، وهى شبهة قديمة قص القرآن الكريم خبر أصحابها الأولين وردها عليهم ، إذ يقول تعالى : ﴿ وإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنهُمْ لِمَ تَعظُونَ قَوماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ ولَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۞ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [2] .

---

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن . (٢) الأعراف : ١٦٤ ، ١٦٥

فهاتان الآيتان تدفعان هذه الشبهة بالمداومة على الدعوة إلى الله للمتمادين فى الغىّ والضلال ، للإعذار إلى الله بأداء واجب الدعوة ، ولرجاء إصلاح حالهم وتقواهم لربهم ، وقد نزلت الآيتان فى الرد على أهل القرية القريبة من البحر من اليهود الذين كانوا يتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فى يوم السبت ، قال صاحب تفسير المنار : « تدل هذه الآية على أن الذين كانوا يعدون فى السبت بعض أهل القرية لا كلهم ، وأن أهلها كانوا ثلاث فرق ، فرقة العادين الذين أشير إليهم فى الآية الأولى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ ﴾ (١) وفرقة الواعظين الذين نهوا العادين عن العدوان ، ووعظوهم ليكفوا عنه ، وهى التى أشير إليها فى هذه الآية ، وفرقة اللائمين للواعظين التى قالت لهم : « لِمَ تعظون قوماً قضى الله عليهم بالهلكة أو العذاب الشديد ، فهو إما مهلكهم بالاستئصال أو بعذاب شديد دون الاستئصال ، أو المعنى : مهلكهم فى الدنيا ومعذبهم فى الآخرة » ،

---

(١) الأعراف : ١٦٣

وأياً ما كان المراد (فأو) هنا هى المانعة للخلو من وقوع أحد الجزاءين لا المانعة لجمعهما ، فهى لا تنفى اجتماعهما ، وفى الآية من الإيجاز البليغ ما لا يوجد نظيره فى غير القرآن ﴿ قَالُوا مَعْذِرةً إِلَى ربِّكُمْ ولَعَلَّهُمْ يتَّقُونَ ﴾ أى قال : الواعظعون للائمين نعظهم وعظ عذر نعتذر به إلى ربكم عن السكوت على المنكر ، وقد أمرنا بالتناهى عنه ، ورجاء انتفاعهم بالموعظة وحملها لهم على اتقاء الاعتداء الذى اقترفوه ، أى فنحن لم نيأس من رجوعهم إلى الحق يأسكم ، ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّروا بِهِ ﴾ أى فلما نسى العادون المذنبون ما ذكرهم ووعظهم به إخوانهم المتقون بأن تركوه وأعرضوا عنه حتى صار كالمنسى فى كونه لا تأثير له ، ﴿ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ﴾ أى عن العمل الذى تسوء عاقبته ، أى أنجيناهم من العقاب الذى استحقه فاعلو السوء بظلمهم ، ﴿ وأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وحدهم ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ أى شديد ، من البأس وهو الشدة أو البؤس وهو المكروه أو الفقر ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى

بسبب فسقهم المستمر ، لا بظلمهم فى الاعتداء فى السبت فقط [1] .

فتظل الدعوة إلى الله ضرورة لأداء واجبها فى كل حال من الأحوال .

ثالثاً : والدعوة إلى الله ضرورة للحفاظ على الحياة بمفهومها الإسلامى الرفيع : إن الحياة تستعمل على أوجه :

الأول : للقوة النامية الموجودة فى النبات والحيوان ، ومنها قيل : (نبات حى) .

وقال عَزَّ وجَلَّ : ﴿ اعْلَمُوا أنَّ اللهَ يُحْيِى الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿ وأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيتاً ﴾ [3] .

وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [4] .

الثانى : للقوة الحساسة وبه سمى الحيوان حيواناً .

---

(١) تفسير المنار : ٩/ ٣٧٦ ، ٣٧٧
(٢) الحديد : ١٧
(٣) سورة ق : ١١
(٤) الأنبياء : ٣٠

قال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ ﴾ [1] .

وقوله تعالى : ﴿ إنَّ الَّذِى أحْيَاهَا لَمُحْيِى المَوْتَى إنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [2] .

فقوله : ﴿ إنَّ الَّذِى أحْيَاهَا ﴾ إشارة إلى القوة النامية ، وقوله : ﴿ لَمُحْيِى المَوْتَى ﴾ إشارة إلى القوة الحساسة .

الثالث : القوة العاقلة المهتدية :

كقوله تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فأَحْيَيْنَاهُ ﴾ [3] .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [4] .

الرابع : الموت فى سبيل العقيدة .

كقوله عزَّ وجَلَّ : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أمْوَاتاً بَلْ أحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [5] .

---

(١) فاطر : ٢٢

(٢) فصلت : ٣٩

(٣) الأنعام : ١٢٢

(٤) الأنفال : ٢٤

(٥) آل عمران : ١٦٩

الخامس : الحياة الأخروية الدائمة .

كقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ (١) .

السادس : الحياة التى يوصف بها البارى ، وليس ذلك إلا لله .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (٢) .

والوجه الثالث من هذه الوجوه هو ما نهدف إليه .

لقد دعا رسول الله ﷺ البشرية بالتبليغ عن الله تعالى إلى ما فيه حياة القلوب والأرواح من العقيدة التى بعث بها رسل الله ، عقيدة توحيد الله فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وما يتبع ذلك من الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، ومن هداية السماء والشريعة الغراء ، وهذه هى الحياة الحقة فى ميزان الإسلام ، الحياة التى تعصم دم صاحبها وتصون حقوقه :

---

(١) النحل : ٩٧ (٢) الشورى : ١١

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (١) .

وإذا كان حفظ النفس من الضروريات الخمسة ، وقد شرع الإسلام لإيجادها الزواج للتوالد والتناسل ، وشرع لحفظها وكفالة حياتها إيجاب تناول ما يقيمها من ضرورى الطعام والشراب والسكن ، وإيجاب القصاص والدية والكفارة على من يعتدى عليها ، وتحريم الإلقاء بها إلى التهلكة - إذا كان حفظ النفس كذلك - فإن الهداية التى بها حياة القلوب والأرواح والتى تجعل للإنسان حرمةً ، وتستوجب له العصمة ، والدعوة إلى الله قوام هذه الحياة .

وضرب الله تعالى مثلاً للمؤمن والكافر فى آية أخرى بالحى والميت ، فالمؤمن أحياه الله بالإيمان ، وجعل له نوراً يمشى به فى الناس ، وهو نور القرآن وما فيه من العلم الإلهى والهداية بآياته .

أما الكافر فإنه يتخبط فى ظلمات الجهل والضلال ،

---

(١) الأنفال : ٢٤

وقد ألف فساد الفطرة ، وعمى البصيرة ، فلم يعد يشعر بالخروج من ذلك إلى النور ، ولا يستوى هذا وذاك ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنهَا ﴾ (١) .

والدعوة إلى الله ضرورة للحفاظ على هذه الحياة بمفهومها الإسلامى الرفيع .

● **آثار الدعوة إلى الله :**

للدعوة إلى الله آثارها الكثيرة ، ومن ذلك :

١ - الحفاظ على عقيدة التوحيد وتنقيتها من شوائب الشرك والبدعة والخرافة : لقد فطر الله الناس على توحيده وطاعته : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) الأنعام : ١٢٢ (٢) الروم : ٣٠ - ٣٢

والفطرة هى ملة الإسلام التى خلق الله عباده عليها ، فإنهم لو خُلُّوا وما خلقوا عليه لكانوا مسلمين موحدين . وتوجه الخطاب فى صدر الآيات لرسول الله ﷺ حيث أمره الحق تبارك وتعالى أن يسدد وجهه ، ويستمر على الدين الذى شرعه الله ويثبت عليه ، مائلاً عما سواه غير ملتفت إلى غيره ، وأن يلزم الفطرة السليمة التى فطر الله الخلق عليها ، ولكن الخطاب يشمل جميع الأمة . وإنما توجه الخطاب بصيغة المفرد إلى رسول الله ﷺ باعتباره إماماً لأمته ، فأمره عليه الصلاة والسلام يستتبع أمرهم ، ولذا جاء قوله تعالى بعد ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهَ ﴾ بصيغة الجمع .

ويتأكد الأمر بلزوم فطرته تعالى بالجملة التى وقعت تعليلاً له ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ سواءً أكانت هذه الجملة خبراً بمعنى الطلب ، أى لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التى فطرهم الله عليها ، أم كانت خبراً على بابه ، والمعنى أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم فى الفطرة على الجبلة المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك .

وهذا هو الدين المستوى الذى لا عوج فيه ، ولكن أكثر

الناس لا يعلمون ، فيصدون عنه ويتنكبون طريقه . وفى مثل هذه الحال يكون الرجوع إلى الله والإنابة إليه واجتناب ما نهى عنه ، والقيام على الدين - وعماده الصلاة - يكون ذلك ضماناً للحفاظ على سلامة الفطرة مرةً أخرى .

ثم يأتى النهى عن الشرك بما يدل على أن انحراف الفطرة من ضروب الشرك ، وأن المبدلين لفطرة الله تعالى يشركون بالله ، فيختلفون فى معتقداتهم وسلوكهم باختلاف أهوائهم وشهواتهم ، واختلاف نحل من يستدرجونهم للضلال والباطل ، ويتفرقون فرقاً تشايع كلٌ منها عقيدتها الزائفة وإمامها الذى أضلها ، فهى فرق شتى فى مزاعمها الباطلة ، ومناهجها المنحرفة كل حزب منها فرح بما لديه يظن أنه على الحق ، والحق لا يتعدد فإنه صراط الله المستقيم .

وجاءت الأحاديث مبينةً لهذا المعنى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » ،

ثم يقول أبو هريرة : واقرؤوا إن شئتم (فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ) »[1] .

وفى الحديث القدسى يقول الله عَزَّ وجَلَّ : « إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم »[2] .

ومنح الله الإنسان القوى المدركة المميزة التى تقود الإنسان إلى القيام بالمعروف والامتناع عن المنكر ، ولكن هذه القوى لا تدرك الصواب والحق دائماً ، فضلاً عن عالم الغيب ، لما يعرض للإنسان من قصور فى إدراكه وما يؤثر عليه من عوارض الحياة ، فامتنّ الله على عباده ببعثة رسله بياناً للحق وموازينه ، وإعذاراً لهم وإسقاطاً لحجتهم ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾[3] .

وختم الله الرسالات السماوية بالرسالة العالمية ، رسالة محمد ﷺ ، ولكن الناس يخضعون لعوارض الحياة

---

(١) متفق عليه .
(٢) رواه مسلم .
(٣) النساء : ١٦٥

ويتأثرون بما تحدثه من انحراف الفطرة وفساد العقيدة .
والدعوة إلى الله هى ميراث النبوة ، الذى يمتد فى عصور التاريخ لترسيخ جذور التوحيد وتنمية بواعثه والحفاظ على العقيدة فى جوانبها المختلفة ، ودرء كل عارض يعرض للناس فيحيد بهم عن جادتها ، والعقيدة هى لب الدين والأصل الذى ترتكز عليه دعائم الشريعة ، ولن يقبل الناس الشريعة إلا إذا صلحت عقيدتهم . ولهذا كانت العقيدة أول ما دعا إليه الرسل .

٢ - تبصير الناس بشريعة الإسلام وحثهم على الاهتداء بها والعمل بأحكامها :

إن قبول الدعوة إلى الله بإخلاص وصدق يستلزم معرفة أحكام الإسلام حتى يعمل بها المسلم وفق شريعته ، ويقوم بهذا العلماء والدعاة إلى الله ، وهو ما نجده فى سيرة الرسول ﷺ ؛ أرسل ﷺ مصعب بن عمير بعد بيعة العقبة الأولى إلى المدينة ليتعهد أهل العقبة فى أمور دينهم ، قال ابن إسحاق : (فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن

عبد مناف بن عبد الدار بن قصى وأمره أن يُقْرِئَهُم القرآن ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين فكان يسمى المقرئ فى المدينة) [(1)] ، فمن الضرورى متابعة من يستجيب للدعوة لتعليمه أحكام دينه وتعريفه بحدود الله ، يبدأ هذا بأصول الإسلام ثم يكون التدرج للأحكام التفصيلية ، ويتأكد هذا إذا انتشر الجهل وفشت الأمية الدينية ، كما نعهد هذا فى كثير من الديار حتى فى طبقات المثقفين المتعلمين الذين أحرزوا شهادات علمية عالية فى التخصصات المختلفة ، حيث تخلو خطة مناهج التعليم العام فضلاً عن التعليم الجامعى من نصاب للعلوم الدينية يكفى لمعرفة الأحكام الضرورية فى الفقه الإسلامى التى يمارسها المسلم فى حياته .

وبلغ اهتمام رسول الله ﷺ بهذا أنه كان يقطع خطابه العام ويتوجه إلى صاحب سؤال ليجيبه عن سؤال ويعلمه أمر دينه ، روى أبو رفاعة تميم بن أسيد - رضى الله عنه - قال : « انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب فقلت :

---

(١) سيرة ابن هشام : ٧٦/٢ ، طبع الحلبى بمصر .

يا رسول الله ، رجل غريب جاء يسأل عن دينه ، لا يدرى ما دينه ، فأقبل علىَّ رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إلىَّ فأتَى بكرسى فقعد عليه وجعل يعلمنى مما علمه الله ثم أتى خطبته فأتم آخرها » (١) .

وكان هذا هدى رسول الله ﷺ فى تعليم أصحابه بدءاً بالصلاة التى هى عماد الدين ، ونهايةً بما يباح من الأطعمة . عن عدى بن حاتم قال : « أتيت رسول الله ﷺ فعلمنى الإسلام ونعت لى الصلاة ، وكيف أصلى كل صلاة لوقتها ، ثم قال لى : كيف أنت يا ابن حاتم إذا ركبت من قصور اليمن لا تخاف إلا الله حتى تنزل قصور الحيرة ؟ قال : قلت يا رسول الله ، فأين مقانب طىء ورجالها ؟ قال : يكفيك الله طيئاً ومن سواها ، قال : قلت : يا رسول الله ؛ إنا قوم نتصيد بهذه الكلاب والبزاة فما يحل لنا منها ؟ قال : « يحل لكم ما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ، فما علمت من كلب أو باز ثم أرسلت وذكرت اسم الله

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الجمعة .

عليه ، فكل مما أمسك عليك » . قلت : وإن قتل ؟ قال : « وإن قتل ولم يأكل منه شيئاً ، فإنما أمسكه عليك » ، قلت : يا رسول الله ، إنا قوم نرمى بالمعراض فما يحل لنا ؟ قال : « لا تأكل ما أصبت بالمعراض إلا ما ذكيت » [1] .

وما حكاه القرآن الكريم عن أهل الكتاب وكتمانهم لما آتاهم الله من علم ببعثة محمد ﷺ واستحقاقهم العذاب لذلك ، يدل بمفهوم المخالفة على وجوب بلاغ الدعوة وتعليم الناس ما تضمنته ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [2] . قال ابن كثير فى تفسير الآية : (وفى هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ويسلك بهم مسلكهم ،

---

(١) رواه أحمد فى مسنده : ٤/ ٢٥٧

(٢) آل عمران : ١٨٧

فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح ولا يكتموا منه شيئاً) .

وبهذا تؤتى الدعوة إلى الله ثمارها فى تبصير الناس بدينهم .

٣ – تصحيح المفاهيم الإسلامية والوقوف فى وجه التيارات الفكرية الوافدة على ديار الإسلام :

لقد مر على العالم الإسلامى أحقاب من الزمن تعرض فيها لغزو عسكرى خطير ، وغزو فكرى أشد خطورة ، فتداعت مفاهيم الإسلام وانحسر ظلها ، وغاب عن الأذهان كثير منها ، وكان هذا العمل عن تخطيط مدروس رهيب لينسلخ المسلمون من دينهم ، وإن لم يعلنوا ردتهم ، فلا يكون للإسلام وجود تطبيقى وإن ظل له وجود رسمى ووجود شعبى .

وهذا ما عناه « غلادستون » رئيس وزراء بريطانيا فى كلمته المشهورة التى طرحها على مجلس العموم البريطانى فى عام ١٨٨٣م حين حمل المصحف وقال : (ما دام هذا الكتاب باقياً فى الأرض فلا أمل لنا فى إخضاع المسلمين

بل ونحن على خطر فى أوطاننا) ، فإنه لم يقصد بهذا المصحف المكتوب فى السطور ، أو المحفوظ فى الصدور ، وإنما قصد القرآن المفهوم فهماً صحيحاً ، المطبق فى حياة المسلمين .

وتضافرت عوامل كثيرة بأساليب شتى لتحقيق ذلك فى الاستعمار ، الذى بسط نفوذه على معظم البلاد الإسلامية وأشاع فيها الفرقة والشتات ، وبذر بذور الحزبية ، ووجه التعليم والثقافة والإعلام توجيهاً علمانياً غربياً ، وأنشأ أجيالاً تعيش على أرض الإسلام بأجسامها وفى العالم الغربى بعقولها ، الإسلام عندها صلة بين العبد وربه ولا علاقة له بشؤون الحياة ، وأسهم المبشرون والمستشرقون فى هذا بنصيب وافر ، فلا غرابة بعد هذا أن نرى طليعة المثقفين قد انبهرت بالحضارة الغربية ، وتقدمها التقنى وتفوقها الصناعى ، وأسقطت الدين من حسابها فى الحياة ، بل اعتبرته السبب الرئيسى فى التخلف ، فأصاب النفوس ما أصابها من خواء روحى ، وانغمست فى الشهوات والملذات .

كتب أحدهم من القيادات الفكرية التى ذاع صيتها عن أئمة الفقه الإسلامى ، فذكر أنهم شغلوا أنفسهم بمسائل فرعية ، ولم يعرفوا من معايش الناس سوى ما لدى أهل الصحراء وأنه - أى الكاتب - أتيح له فى العصر الحاضر أن يعرف أنواع الثقافات ، فهو أقدر منهم على فهم الإسلام وفقهه ، وأن التطبيقات التشريعية كانت تاريخاً وليست تشريعاً ، وأن مفهوم الشريعة يتلون ويتغير بلون الحكم وتغيره » (١) .

وكتب أحد المستشارين فى أعلى سلطة دستورية فقال : (بعد وفاة النبى ﷺ انتهى التنزيل ووقف الحديث الصحيح وسكتت بذلك السلطة التشريعية التى آمن بها المؤمنون وكانت أساس خضوعهم لأحكامها ، وكان يجب على الخلفاء والفقهاء أن يدركوا أن الشريعة انتقلت إلى الأمة - أى الجماعة الإسلامية - فأصبحت الأمة أساس الشرعية فى الخلافة والوزارة والتشريع والأوامر والأحكام ، إنه مع

---

(١) انظر : مقال أحمد بهاء الدين فى مجلة صباح الخير ص ١٤ ، العدد ١٧٣٦

انعدام الوحى ، وبعد فترة النبوة لا يكون الحديث عن عمل الله ، وأمر الله ، وخلافة الله إلا ضرباً من التعابث والتخابث والتحايل . . .) [1] .

إن هذا المستشار يرى أن التشريع الإسلامى فى مصدريه الأساسيين (الكتاب والسُّنَّة) وهما دستور الإسلام قد انتهى بوفاة الرسول الله ﷺ وانتقلت السلطة التشريعية إلى الأمة ليثبت بذلك النظرية التى لقنها من سادتها الغربيين - وهى أن الأمة مصدر السلطات - وليجعل الخروج على القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية أمراً مشروعاً .

وهو يعلم علم اليقين أن دستور أى دولة لا يتغير إلا إذا هبت ريح ثورية عاصفة أزالته وبددته ، فهذا المستشار هو تلك الريح العاصف ، ويتمادى فى غيه ليصل إلى غايته من ترك الكتاب والسُّنَّة فيقول : (القرآن ليس كتاب تشريع ولكنه فى الأساس كتاب دين وإيمان) .

---

(١) انظر : مقال الدكتور / محمد سعيد العشماوى فى مجلة أكتوبر ، العدد ٦٥٤ - الأحد ٢ من شوال ١٤٠٩ هـ (٧ مايو ١٩٨٩م) .

والمستغربون المنبثون فى البلاد الإسلامية يحملون هذا الفكر السقيم ، ويمضون سراعاً فى اتجاههم الفكرى بعد أن انزاح كابوس الاستعمار العسكرى ، والحرب العقدية الفكرية أشد ضراوةً من الحرب العسكرية ، لأنها تسلب النفوس ، وتقضى على الأرواح ، وتهدم القِيَم والأخلاق وتحول الحياة الإنسانية إلى جحيم لا يطاق . وقضايا تيارات الاستغراب والإباحية والتحلل كثيرة فى صراعها مع الإسلام ، كقضية تحرير المرأة وسفورها ومساواتها بالرجل وحقها فى الولاية العامة ، وقضية الغناء والطرب والملاهى والرقص العارى ، وغير ذلك مما هو شائع معروف لإثارة الشبه على الإسلام ، وتوهين شأنه فى نفوس أبنائه وفقدان الثقة فى صلاحيته لاستيعاب الحضارة الحديثة .

والدعوة إلى الله على يد الدعاة المؤهلين علمياً وفكرياً تتصدى لهذه الاتجاهات ، وتفند مزاعمها ، وتجلو زيفها وتقدم المفاهيم الصحيحة للإسلام .

٤ – تحقيق التكافل الدعوى الذى يحفظ الأمة من الضياع :

تتحدث الأمم عن التكافل الاجتماعى ، وتنشئ له

مؤسسات خاصة به ، ترعى ذوى الحاجة وتمدهم بالمساعدة وتشعر كل فرد فى الأمة بأنه لا يعيش وحده ، وأن ما يعرض له من عوز وما يلحقه من فاقة ، وما ينزل به من نازلة لا يؤدى إلى هلاكه ، لأن هناك من يكفله فيسد عوزه ويخفف عنه فاقته ، ويواسيه فى نازلته .

ويتميز الإسلام بتكافل آخر ، هو التكافل الدعوى الذى يحفظ الأمة من الضياع ، فكل مسلم على ثغرة من ثغور الإسلام يصون حوزة الدين ، ويقوِّم ما ينشأ فى الأمة من خلل ، ويصلح ما يظهر فيها من فساد . إنها خصيصة تنبع من صفات الداعى الأول رسولنا محمد ﷺ ومن وظيفته فى الدعوة ، يدرأ كل ما يوقع فى المعصية وتزينه الأهواء والشهوات ، ليباعد بين الناس وعذاب النار ، وقد ضرب عليه الصلاة والسلام مثلاً لذلك فقال : « إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ، فإنما آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه » (١) .

ومهما حرص الإنسان على إصلاح حاله واستقامة

---

(١) رواه مسلم .

سلوكه فإنه لا يستطيع أن يكون فى عزلة عن مجتمعه ، بل يتأثر به تأثراً متفاوتاً بما يكون فيه من وباء الفساد ، هذا الوباء الذى ينفث سمومه فينتشر شره وتعم طامته ، فلا تلبث الأمة طويلاً حتى تهلك وتذهب ريحها .

والدعوة إلى الله أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر إذا قام بها كل فرد قدر طاقته ، ووضع يده فى يد الآخرين لكبح جماح الرذيلة ، هى التى تحرس الدين وتصون كيان الأمة ، لأن شرر المفسدين فى الأرض يتطاير فيلتهم الصالح والطالح ، والتكافل فى الأخذ على يد العابثين هو منهج الإسلام .

وضرب رسول الله ﷺ مثلاً لذلك فقال : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنّا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ؟ فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » (١) ، ويقول تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ

---

(١) رواه البخارى .

وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (١) . قال القرطبى : « ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أى قلوبهم متحدة فى التواد والتحاب والتعاطف » (٢) . وقال ابن عطية : « يتولى بعضهم من أمر الآخرين أفراداً أو جماعات ما يتولونه من أمر أنفسهم عند الحاجة من تعاون وتناصر وتناصح ، وتواد لأن حقوقهم ومصالحهم مشتركة) .

والعقوبة التى تنزل بالظالمين الباغين الضالين لا تخصهم بالسوء ولا تنتقبهم وحدهم ، ولكنها فتنة يتفاقم شرها إذا ترك المصلحون الأخذ على يد أصحابها فتقضى على الأمة كلها ، الأبرار منها والفجار ، ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ (٣) . قال القرطبى : (قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب ، وكذلك تأول فيها الزبير بن العوام ، قال يوم الجمل : وكانت سنة ست وثلاثين (ما علمت أنّا

---

(١) التوبة : ٧١ (٢) الجامع لأحكام القرآن : ٢٠٣/٨

(٣) الأنفال : ٢٥

أُردنا بهذه الآية إلا اليوم ، وما كنت أظنها إلا فيمن خوطب ذلك الوقت) ، وكذلك تأول الحسن البصرى والسدى وغيرهما . . . ثم قال : وهذه التأويلات هى التى تقصدها الأحاديث الصحيحة :

ففى صحيح مسلم عن زينب بنت جحش أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت له : (أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث ») . وفى صحيح الترمذى : (إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده ») [1] .

ومن جوامع كلم رسول الله ﷺ ما رواه تميم بن أوس الدارى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « الدين النصيحة » قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » [2] .

فالنصيحة عماد الدين وقوامه ، وقد جاء هذا بصيغة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٧/ ٣٩١ ، ٣٩٢

(٢) رواه مسلم .

الحصر فى الجملة الاسمية المعرفة الطرفين (الدين النصيحة) على وجه المبالغة ، فهو حصر مجازى فى مدح النصيحة حتى جعلت كل الدين ، والنصيحة لله : - كما ذكر الخطابى - تنصرف إلى الإيمان به ، ونفى الشريك عنه ، وترك الإلحاد فى صفاته ، وأسمائه ، ووصفه بصفات الكمال ، وتنزيهه عن جميع النقائص ، والقيام بطاعته ، واجتناب معصيته ، والحب فيه ، والبغض فيه ، وموالاة من أطاعه ، ومعاداة من عصاه ، وجهاد من كفر به .

والنصيحة لكتابه : الإيمان بأنه كتاب الله ، وتنزيله ، وكلامه لا يشبه شيئاً من كلام الخلق ، ولا يقدر عليه أحد منهم ، ثم تعظيمه وتلاوته ، والذب عنه لتأول المحرفين ، والتصديق بما فيه ، والوقوف مع أحكامه .

والنصيحة لرسوله : تصديقه على الرسالة ، والإيمان به ، وطاعته فى أوامره ونواهيه ، وبث دعوته ، ونشر سُنَّته ، والتخلق بأخلاقه ، والتأدب بآدابه ، ومحبة آله وأصحابه ، وبغض أهل البدع فى السُّنَّة والمتعرضين لأحد من الصحابة .

والنصيحة لأئمة المسلمين : معاونتهم على الحق ، وطاعتهم فى المعروف ، وتنبيههم عما غفلوا عنه ، وتذكيرهم برفق ولطف ، وترك الخروج عليهم ، والبعد عن إغرائهم بالثناء الكاذب ، والدعوة لهم بالصلاح .

والنصيحة لعامة المسلمين : إرشادهم لمصالحهم فى دنياهم وأخراهم ، وإعانتهم على ذلك بالقول والفعل ، ودفع المضار عنهم ، وجلب المنافع لهم ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، والدفاع عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم .

وهذا التكافل الدعوى هو الذى يحمى الأمة من الضياع .

٥ – إقامة الدولة الإسلامية الحضارية ، التى تحرس الدين وتطبق الشريعة ، وتعمل على رعاية شؤون الدنيا :

الإسلام دين عام شامل يتناول شُعَب الحياة كلها :

– فى العقيدة وما يتصل بها من عالم الغيب .

– وفى العبادات وكيفيتها وتفصيلها .

– وفى المعاملات اللازمة لحياة الجماعة فى تبادل المنافع .

– وفى حياة الأسرة منذ تكوين نواتها الأولى فى بناء الحياة الزوجية ، وما يتلو ذلك من عشرة وولد ، وما يتبع هذا من إرث .

– وفى العقوبات المنصوص عليها للحفاظ على الدين والنفس والعرض والمال والعقل .

– وفى شؤون الحكم ، وأسسه وتبعاته ، وواجبات كل من الراعى والرعية .

– وفى القضايا المالية والاقتصادية والإدارية .

– وفى حالات الحرب والسلم والعلاقات بالأمم الأجنبية .

– وفى الحياة الخاصة للفرد ، بالأكل والشرب واللباس والكلام ونحو ذلك .

فما من ناحية من هذه النواحى إلا وتناولتها الشريعة الإسلامية فى القرآن والحديث ، بالنص أو الفحوى وأوضحت فيها الخير من الشر ، والطيب من الخبيث والصحيح من الفاسد ، فى صورة كاملة لنظام الحياة فى الإسلام الذى يجب أن يقوم على فعل الحسنات وتنميتها وتجنب السيئات والعمل على استئصالها .

وهذا المنهج التشريعى لفروع الحياة الإنسانية بكافة صورها ، يمثل وحدة متكاملةً لا تقبل التجزئة ، هذه الوحدة هى التى تسمى (إسلاماً) ، فلا يجوز أن يأخذ الناس بعض هذه الشريعة دون بعض ، لأن جوانبها المختلفة هى التى تكوّن بمجموعها (دين الله) والأخذ بجزء دون آخر يخل بهذه الشريعة ويشوه حقيقتها ، والمجتمعات التى تنتسب إلى الإسلام ، وتعمل بجانب منه وتترك جوانب أخرى ، لا يتحمل الإسلام أوزارها ومفاسدها ، فالإسلام عقيدة وعبادة وخلق وتشريع ومنهج حياة .

أرأيت شجرةً باسقةً مورقةً مثمرة ، يتفيأ الناس ظلالها ويأكلون من ثمارها ، ويستروحون عبير أزهارها ؟ إنها شجرة مكتملة الخصائص ، تؤدى نفعها لخير الإنسانية . فشريعة الإسلام تلك الشجرة ، والعقيدة جذورها ، والعبادات ساقها والمعاملات أفنانها ، والأخلاق أوراقها ، والأخوة والعزة والجنة قطوفها ، فإذا أتيت إلى هذه الشجرة وأسقطت ثمارها وأوراقها ولم يبق إلا جذورها - بل أتيت على هذه الجذور بالتحريف والتأويل - فهل تستطيع بعد ذلك أن تقول : إن هذه هى الشجرة الباسقة المثمرة المورقة ؟

وآتت الدعوة إلى الله ثمارها الطيبة فى قيام الدولة الإسلامية الفتية (المملكة العربية السعودية) وبدأت نواة هذا الكيان بدعوة الإمام المجدد المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومؤازرة الإمام محمد بن سعود لها ، فكانت الدولة الإسلامية الأولى التى أخذت على عاتقها أن ترفع لواء التوحيد ، وتجاهد لإعلاء كلمة الله ، وتعمل على تحكيم الشريعة الإسلامية وإقامة حدودها ، وبسطت نفوذها فى أقاليم نجد وامتد سلطانها إلى مناطق الحجاز وإلى الخليج العربى ، وفى ظل هذه الدولة عاش الناس آمنين ، وأفاء الله عليهم من نعمه ، فخرجوا من الضيق إلى السعة ، ومن الشدة إلى الرخاء ، ومن الخوف إلى الأمن ، ومن الخصومة إلى المحبة ، ومن الفرقة إلى الوحدة . يقول ابن بشر فيما تضمنته البيعة التى أبرمت بين الإمامين محمد ابن عبد الوهاب ومحمد بن سعود : (ثم إن محمداً - أى ابن سعود - بسط يده وبايع الشيخ على دين الله ورسوله والجهاد فى سبيل الله وإقامة شرائع الإسلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) [١] .

---

(١) عنوان المجد فى تاريخ نجد للشيخ عثمان بن بشر : ١/ ١٠ نشر مكتبة الرياض الحديثة .

واقتفت الدولة أثر الخلافة الإسلامية ، فألفت القلوب على الدين ، ومضت قدماً فى الإصلاح الإسلامى على نهج السلف الصالح . ووصفها صاحب حاضر العالم الإسلامى فقال : (فتكونت على التوالى وحدة دينية سياسية فى جميع الصحراء العربية شبيهة بتلك الوحدة التى أنشأها صاحب الرسالة ، وفى الواقع فإن المنهج الذى نهجه ابن عبد الوهاب ليشبه شبهاً كبيراً ذلك الذى نهجه الخلفاء الراشدون كأبى بكر وعمر) (١) .

ولئن كان أعداء الدولة قد تآمروا عليها ، وقضوا على كيانها السياسى ، فإن أثر الدعوة ظل باقياً فى النفوس وأعادت البناء مرةً أخرى بقيادة الإمام تركى بن عبد الله ، فكان العهد الثانى ، ولما انتهى هذا العهد تجدد البناء للمرة الثالثة على يد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل - رحمه الله - فى نموذج أكبر رقعةً وأصلب عوداً ، حيث وحد أنحاء شبه الجزيرة العربية ، فى ظل العقيدة السلفية

---

(١) حاضر العالم الإسلامى : ١/ ٢٦١ ترجمة عجاج نويهض تعليق شكيب أرسلان ، الطبعة الرابعة .

والشريعة الإسلامية ، وعنى بمقومات الدولة دعوةً وسياسةً وقضاءً وحكماً ، وتابع أبناؤه البررة من بعده هذه المسيرة الخيرة حتى وصلت الدولة اليوم إلى ما تشهد به الدنيا من تقدم حضارى تحت قيادة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد ابن عبد العزيز - أعزه الله .

وهذا الملتقى الذى يعقد اليوم فى الرياض ، برهان على ما قدمناه من أثر الدعوة إلى الله فى إقامة الدولة ، وهو معلم بارز للحرص على ثوابت دولتنا فى أسس الدعوة ومبادئها وقيمها ، وعلى إدراك متغيرات العصر فى التقدم العلمى والازدهار الاقتصادى .

ولسنا بصدد الشواهد الأخرى فيما تقدمه المملكة من دعم دعوى فى أصقاع الأرض ، نسأل الله أن يجعله فى ميزان حسنات أولى الأمر ، والمخلصين العاملين لعزة الإسلام ونصرة أمته .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مناع بن خليل القطان

أستاذ الدراسات العليا والمشرف على إدارتها

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

فهرس الموضوعات

الصفحة

رقم الإيداع ١٩٩٧/٣٤٨٧
الترقيم الدولى : 3 - 104 - 225 - 977



